مقدمة

تعد دراسة موضوع قرافة القاهرة على جانب كبير من الأهمية، ذلك أن الأبحاث الآثارية السابقة، قد اهتمت بصفة خاصة بدراسة بعض المنشآت المعمارية الباقية بالقرافة، دراسة آثارية معمارية فنية، ولم يتعرض أي من هذه الأبحاث، لدراسة نشأة القرافة والعوامل المختلفة التي كانت وراء اختيار سفح المقطم، قرافة للمسلمين في مصر من الفتح العربي الإسلامي لها إلى نهاية العصر المملوكي، بل وحتى يومنا هذا.

ولم تتعرض هذه الأبحاث أيضًا لدراسة التطور العمراني للقرافة، ومدى ارتباطه باتساع وامتداد عواصم مصر الإسلامية، وما صاحب ذلك من نشاط إنساني في مختلف المجالات الدينية والاجتماعية، وبعض الجوانب المرتبطة بالأحداث السياسية وغيرها.

وقد اقتضى موضوع هذا الكتاب (وهو في الأصل جزء من رسالة الماجستير للمؤلف التي نوقشت وأجيزت عام ١٩٨٧م، ومنذ ذلك الوقت، وحتى الآن، صارت أساسًا للعديد من الدراسات اللاحقة، ولذلك فإن نشرها سوف يكشف المستور. وهو ما سوف نقوم بدراسته دراسة نقدية شاملة في القسم الثاني من هذا الكتاب؛ فضلًا عن تلك الدراسة التي أفردناها للسرقات العلمية في مجال دراسة الآثار الإسلامية والتي ستظهر في القريب بمشيئة الله تعالى) دراسة واسعة، ومستفيضة في ميدانين تلازم كل منهما مع الآخر تلازم وجهي العملة أحدهما أكاديمي، والآخر ميداني.

وتطلب الميدان الأكاديمي الاطلاع على المصادر المعاصرة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل الميسور؛ وذلك لقلة المادة التاريخية، وتشتتها في ثنايا هذه المصادر فما كان عليَّ، إلا أن أقوم بدراسة المصدر، بجميع أجزائه، عسى أن أصادف إشارة تمس

الموضوع من قريب أو من بعيد، وأخيرًا جمعت هذه الشذرات المتباينة لأنسق بينها، وأشيّد من هذا الفتات بحثًا مترابطًا يقوم على أسس علمية سليمة.

ويتصدر قائمة المصادر التي اعتمدت عليها تلك الكتب الخاصة بالمزارات ومن أهمها:

١- ابن الناسخ: مصباح الدياجي وغوث الراجي وكهف اللاجي مما جمع للإمام التاجي (مخطوط).
٢- الخزرجي: مرشد الزوار إلى قبور الأبرار، ويسمى أيضًا بالدر المنظم في زيارة الجبل المقطم.
٣- ابن الزيات: الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى.
٤- السخاوي: تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات.

وقد اهتمت المصادر السابقة بذكر مزارات القرافة والمدفونين بها من العلماء، والأولياء والشيوخ والزهاد، كما اهتمت بذكر تراجمهم، وبوضع نظام وترتيب معين لزيارة القرافة، ومزاراتها والأيام التي تستحب فيها الزيارة والأماكن التي يستجاب عندها الدعاء.

ويلي هذه المصادر كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وقد خصص المقريزي جزءًا كبيرًا تناول فيه القرافة وسبب تسميتها بهذا الاسم، كما ذكر مساجدها وخانقاواتها، ورباطاتها، ومصلياتها، وقبابها، وجواسقها، وقصورها، وأحواضها، وآبارها، وقناطرها، والمشاهد السبعة التي تزار بها، كما تناول المقريزي أيضًا القرافة الواقعة خارج باب النصر، والتي أصبحت شيئًا فشيئًا تشكل الامتداد الشمالي للقرافة الواقعة جنوب القلعة.

وقد اعتمدت أيضًا على عدد من كتب الجغرافيا والرحلات التي أثرت الكتاب بكثير من المعلومات الهامة، ومن أهمها أحسن التقاسيم للمقدسي، ورحلة ابن جبير، ورحلة الهروي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، ورحلة ابن سعيد المغربي، ورحلة البلوي المغربي، ورحلة العبدري المغربي، ورحلة التجيبي، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة الحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، ورحلة العياشي، ورحلة النابلسي، ورحلة الزياني، ورحلة الورثيلاني، ورحلة أوليا جلبي وغير ذلك.

وكان لكتب التراجم دور كبير في إثراء هذا الكتاب؛ ومن أهمها وفيات الأعيان لابن خلكان، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، والدرر الكامنة لأعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني، والمنهل الصافي لابن تغري بردي، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، والكواكب السائرة لأعيان المائة العاشرة للغزي، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي وغير ذلك.

كذلك كانت كتب الخوليات من أهم المصادر التي تضمنت معلومات على قدر كبير من الأهمية، عالجتُ من خلالها التطور العمراني للقرافة، وما كانت تحتوي عليه من المنشآت الكثيرة، كما عالجتُ من خلالها أيضًا أهم مظاهر النشاط الإنساني للقرافة، ومنها كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، وكتاب نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان لابن داود الصيرفي، وكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس وغير ذلك.

وقد اقتضت هذه الدراسة أيضًا الرجوع إلى عدد من المعاجم اللغوية، وذلك لتفسير كثير من الألفاظ والمصطلحات التي وردت في ثنايا الدراسة ومن أهمها تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، والمخصص لابن سيده، والمغرب في ترتيب المعرب للخوارزمي، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروزآبادي والمصباح المنير للمقري الفيومي، ومختار الصحاح للرازي، وتاج العروس للزبيدي وغير ذلك.

واعتمدت أيضًا على عدد كبير من كتب الحديث النبوي الشريف، وكتب الفقه الإسلامي، وقد عالجتُ من خلالها مسألة اتجاه سلاطين وأمراء المماليك إلى الدفن والبناء في الصحراء الواقعة شمال القلعة، وكان من أهم هذه الكتب صحيح مسلم، وصحيح البخاري، وكتاب مجموعة فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتاب شرح الصدور بتحريم رفع القبور للشوكاني، وحاشية ابن عابدين، وكتاب تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد للشيخ ناصر الدين الألباني وغيرها.

واعتمدت أيضًا على مصدر خصب لا يمكن تجاهله، وهو الوثائق الخاصة بمنشآت القرافة وتربها، وقد استطعت من خلال دراسة هذه الوثائق التعرف على عدد كبير من المنشآت المندرسة بالقرافة إلى جانب تحديد مدلول لفظ التربة في العصر المملوكي.

واعتمدت أيضًا على عدد كبير من المراجع العربية الحديثة من كتب وبحوث ورسائل للماجستير والدكتوراه، وهي المدونة في الهوامش وثبت المصادر والمراجع بنهاية الكتاب.

وقد اعتمدت أيضًا على عدد كبير من المراجع الأجنبية؛ وبخاصة كتب الرحالة الذين زاروا مصر، ودونوا مشاهداتهم فيها، ولفتت القرافة أنظارهم، فسجلوا انطباعاتهم عنها، بالوصف أو بالصورة، ومن بينهم:

- Coste (p): Architecture Arabe ou Monuments du kaire (Paris,1839).
- Roberts (D): Egypt & Nubie. London,1849.
- Du Camp (M): Egypte & Nubie, palestine et syrie, paris, 1852.
- Scitivaux (R) : Voyage en orient (Paris, 1873).
- Rhone (A): L'egypte Apetites Journees Etudes et souvenires, (paris, 1877).

- Bechard (M) et polmiere (M.A)
- L' egypte et la Nubia, Grand album (paris, 1887).

كذلك اعتمدت أيضًا على عدد من مؤلفات العلماء والباحثين الأجانب، ومن بينهم: كازانوفا ومهرن وجاييه ودوزى وفرانز باشا وفان برشم وكومب وفيت وهوتكير وديفونشير ولينبول وفاجو وسلادين وميجون وديزوكونل ومارجليوث وكوربت وروسل وبريجز وكريزول وكوبياك وبلوم وجيرو وفرناندز، فضلا عن دراسات دوريس أبو سيف ويوسف راغب وصالح لمعي مصطفى المنشورة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

أما الجانب الميداني فقد كان شاقًّا وعسيرًا، فقد اقتضى زيارات متتالية ومتعددة إلى القرافة الكبرى والصغرى، وقرافة صحراء المماليك، ومشاهدة المنشآت المختلفة بهما سواء أكانت منشآت كبرى، أم مدافن ذات قباب، أم مجرد مقابر تحوي رفات الشيوخ والعلماء والصالحين والزهاد، وكان لوجود هذه المنشآت، وتلك المدافن أثر كبير في تحديد موضع بعض المنشآت المندرسة وبالتالي في رسم ملامح التطور العمراني الذي كانت عليه القرافة.

وتناول هذا القسم الأول الذي بين أيدينا، هذين الجانبين الأكاديمي والميداني على امتداد ثلاثة فصول وخاتمة، وتلك الفصول هي:

الفصل الأول: القرافة: نشأتها وازدهارها من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي.

يتناول هذا الفصل: نشأة القرافة والمسميات المختلفة التي أطلقت على أماكن دفن الموتى، وتفسير مدلول لفظة القرافة الذي أصبح عَلَمًا على تلك الأماكن في مصر دون غيرها من البلاد الإسلامية، كما تناول هذا الفصل موقع القرافة الذي ارتبط بسفح جبل المقطم من الفتح العربي الإسلامي لمصر إلى نهاية العصر المملوكي،

وتناول هذا الفصل أيضًا القرافة الكبرى وازدهار العمران بها حتى نهاية العصر الفاطمي، كما تناول القرافة الصغرى في العصر الأيوبي.

الفصل الثاني: التطور العمراني للقرافة في العصر المملوكي.

يتناول هذا الفصل دراسة التطور العمراني للقرافة في العصر المملوكي، سواء القرافة الواقعة جنوب القلعة، أو الواقعة شمال القلعة، كما يتناول أيضًا المسميات المختلفة التي أطلقت عليها، وتناول هذا الفصل أيضًا تفسير مدلول لفظة التربة في العصر المملوكي.

الفصل الثالث: مظاهر النشاط الإنساني في القرافة.

يناقش هذا الفصل ظاهرة سُكنى القرافة، وهل هي ظاهرة قديمة أم حديثة؟ كما يتناول دراسة مظاهر النشاط الديني والاجتماعي في القرافة، وأيضًا الأمن في القرافة والدور الذي لعبته القرافة في الأحداث المرتبطة بالجوانب السياسية.

وقد أفردت الخاتمة؛ لإبراز النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة، أما القسم الثاني فسوف يتطرق إلى دراسة العمائر الآثارية التي لا تزال باقية بقرافة القاهرة.

وسوف تتعرض بقية مجلدات هذه الموسوعة لدراسة الجبانات الآثارية الباقية في العمارة الإسلامية سواء في قلب العالم الإسلامي أو في كل من الجناحين الشرقي والغربي لدار الإسلام.

هذا ولا يفوتني أن أسجل هنا، خالص الشكر، وعظيم التقدير، لكل من مد لي يد المساعدة حتى خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود، وأخص بالشكر والتقدير السادة أمناء مكتبات كلية الآثار، وجامعة القاهرة، وجامعة عين شمس، والجامعة الأمريكية (مكتبة كريزول) والمتحف الحربي (مكتبة د. عبد الرحمن زكي)، ودار

الكتب القومية، ومكتبة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ومكتبة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، فضلاً عن كل من مكتبة جامعة الملك سعود، ومكتبة مؤسسة الفيصلية، ومكتبة الملك فهد، ومكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ومكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ومكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة بالمملكة العربية السعودية، ومكتبة جامعة الكويت بالشويخ وكيفان بدولة الكويت.

وأقدم خالص الشكر وعظيم التقدير إلى أ ستاذي الجليلين أ.د. آمال العمري وأ.د. عبد العزيز عبد الدايم، وشكر خاص لأستاذي العالم الجليل عبدالرحمن عبد التواب شيخ الآثاريين.

وأتقدم أيضًا بخالص الشكر والتقدير إلى أساتذتي الأجلاء وزملائي الأوفياء بكلية الآثار، وإلى كل من السيدة/ وداد إسماعيل مدير عام مركز تسجيل الآثار الإسلامية، والسيدة/ آمال أمين مدير عام الشئون الفنية بالمركز وقتئذ، على عظيم عونهما لي في استخراج كافة الرسومات التوضيحية التي استعنت بها في هذه الدراسة.

وبعد، فإذا كنت قد وفقت فيما قصدت إليه فلله الحمد؛ وهو من وراء قصدي خير معين، وإن كنت قد قصرت فحسبي أن يكون هذا الكتاب لبنة صغيرة في مجال الدراسات الحضارية والآثارية.

والله أسأل أن يحتل هذا الكتاب مكانه اللائق بين الكتب العلمية الجادة والمميزة؛ وعلى الله قصد السبيل.

د. محمد حمزة الحداد
الكويت في يوم الأربعاء
١١ رجب ١٤٢٣هـ
الموافق ١٨/ ٩/ ٢٠٠٢م